

مظاهر أفكار جمال الدين الأسدآبادى فى أشعار

محمد مهدي الجواهرى

جعفر دلشاد*

سيد محمود ميرزاى الحسينى**، على اكبر مراديان***

الملخص

جمال الدين الأسدآبادى (١٨٣٨-١٨٩٧ م) هو أحد أكبر المصلحين فى التاريخ الإسلامى المعاصر. له آراء و اقتراحات قيمة فى مجال النهوض بالعالم الإسلامى و توحيد صفوف المسلمين. و هو من رواد مكافحى الاستبداد و الاستعمار. بذل هذا المفكر المصلح جهوداً حثيثة لتجديد الفهم الدينى فهماً يلائم مقتضيات العصر الراهن. كما أنه دعا إلى نبذ بعض التفسيرات الخاطئة لبعض المفاهيم الدينية مثل القضاء و القدر، و حاول تعريفها تعريفاً يتلاءم و العقل و العلوم الحديثة لبث النشاط و الأمل و الحركة فى قلوب المؤمنين.

و قد تأثر كثير من الكتّاب و الشعراء بآرائه هذه، و منهم الشاعر العراقى الكبير محمد مهدي الجواهرى (١٨٩٩-١٩٩٧ م). إذا تأملنا فى دواوينه و تقصيناها رأينا أن رؤاه و طموحاته تشبه آراء الأسدآبادى فى المجالات المذكورة. الأمر الذى نحاول تسليط الضوء عليه فى هذا المقال.

الكلمات الرئيسية: جمال الدين الأسدآبادى، محمد مهدي الجواهرى، الفكر الإصلاحى، الشعر العربى المعاصر.

* أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة إصفهان (قد انتقل إلى جوار ربّه فى السنة المنصرمة)

** أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة لرستان mahmudalhosaini@gmail.com

*** أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة لرستان aliakbarmoradian@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/١٨، تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/٢١

١. المقدمة

يتناول هذا المقال تأثير أفكار المصلح الكبير السيد جمال الدين الأسدآبادى (المعروف بالأفغانى - خطأ) فى آراء الشاعرا العراقى الكبير محمد مهدي الجواهرى فى عدّة مجالات، منها؛
أ) الوحدة الإسلامية تحت راية «الرابطّة الإسلاميّة»؛
ب) توحيد صفوف الشرفيين ضدّ الاستعمار الغربى؛
ت) ضرورة التجديد فى المفاهيم الدينية؛
ث) الدعوة إلى وحدة أتباع الديانات و محاولة التقريب فيما بينها.

و منهجنا فى هذا البحث منهج تحليل النصوص و للحصول على النتائج المنشودة اعتمدنا على دراسة آراء الأسدآبادى فى كتاب *العروة الوثقى* ثمّ كتاب «جمال الدين موقف الشرق و فيلسوف الإسلام» لمحمد عمارة، و «دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام» لمصطفى فوزى بن عبد اللطيف و كذا استخرجنا آراء شاعرنا الجواهرى من خلال دراسة دواوينه فى الدرجة الأولى و كذا لم نغفل عن كتاب *ذكرياتى* للشاعر و دراسات مهمّة أخرى ناقشت حياة الشاعرا و أفكاره مثل «مجمع الأضداد: دراسة فى سيرة الجواهرى و شعره»، لسليمان جبران.

٢. التمهيد

أ) جمال الدين (١٨٣٨-١٨٩٧ م)

لقد اختلف المؤرّخون و المهتمّون بحياة جمال الدين و أفكاره و مولده، منهم من نسبته إلى بلاد الأفغان و منهم من نسبته إلى إيران. و لكلّ منهم أدلّة و براهين يستدلّون بها لإثبات ما يذهبون إليه. و أمّا الذين يرون أنّه أفغانى فيستدلّون بأنّه صرّح أنّه أفغانى و ذكر تلميذه محمد عبده هذه الحقيقة بعد طول العسرة و الصعبة فهو ممّن يوثق بهم فى هذا المجال الكمال الثّقّة.

و هناك أدلّة عديدة لبعض الإيرانيين و عدد من المستشرقين الأوروبيين على أنّه إیرانىّ و موطنه و محلّ ميلاده قرية أسد آباد بالقرب من همدان و يؤكّدون على أنّه شيعىّ متعصّب للشيعّة، لكن انتسب إلى غير موطنه و غير مذهبه لكى يجد لدعوته آذاناً صاغية فى العالم الإسلامىّ (عمارة، ١٩٨٨: ١٩-٢١؛ فوزى، ١٩٨٣: ٩-١٠، ٧١-٧٩، ١٩٩-٢٢٨).

نشط جمال الدين فى مجالات عدّة؛ منها الدعوة إلى الحرّيّة الفكرية و التجديد فى فهم الدين و نبذ المعتقدات الخرافية البالية و التقاليد العمياء و مكافحة الاستبداد و الاستعمار. و كذا

دعا إلى جمع شمل كافة المسلمين تحت راية الرابطة الإسلامية و هو ما نسبته القول فيه في هذا المقال. و أخيراً بعد كفاح طويل دُسم له السّم في الآستانة في ٦ آذار سنة ١٨٩٧ م (الفاخوري، ١٤٢٢: ٢ / ٧٧-٧٨).

ب) حياة الجواهري و شعره

ولد محمد مهدي الجواهري في النجف الأشرف عام ١٨٩٩ م، و روى عام ١٩٠٠ م، و كذا عام ١٩٠١ م، و كان الشّاعر دائماً يصرّ على أنّه وُلدَ عام ١٩٠٣ م (الجواهري، ١٩٨٠: ١ / ٢٤-٢٥) يبدو أنّ الصحيح هو «يوم الأربعاء، السادس و العشرين من تمّوز سنة ١٨٩٩» (المصدر نفسه: ٢٥).

كان أبوه الشيخ عبد الحسين فقيهاً بارزاً و عالماً شهيراً و كان يقرضاً لشعراًحياناً، و لا شك أنّاً خلاقاً لجواهري و شخصيته و معتقداته كانت مرتبطة أشد الارتباط بالبيئة العراقية و المذهب الشيعي الذي يعدّ العراق مركزه الأول من الناحية الزمنية و من ناحية الأهمية لدى الطائفة الشيعية.

و من البديهي أيضاً أن يكون شاعرٌ كبير مثل الجواهري على إمام بطلان التجديد الثقافي و رواد النهوض القومي. يؤكد الشّاعر على تأثير بعض هؤلاء العلماء فيه و في شخصيته و أفكاره و الاقتداء بهم في هديهم. لنستمع إليه و هو يقول:

إني لمدين في تصوّراتي اللاحقة عن البطولة لهذه الشخصيات التي جمعت قيم السماء و الأرض،
و لم يشغلها البحث العلمي و الدّين عن هموم النّاس اليومية و عن دور رجل الدّين و المتقف في
معركة التّحرير (الجواهري، ١٩٨٨: ١ / ٧٦)

لذا نراه يبدأ حياته في ساحة الشعر بالوقوف ضد الطّغاة و المستعمرين. فقد كان الالتهام بالقضايا السياسية و الاجتماعية و الدعوة إلى إصلاح شؤون المجتمع أحد أهمّ الأغراض في قصائده. و من أبرز من تأثر به شاعرنا في هذا المجال هو المصلح الكبير جمال الدين الأسدآبادي و عبد الرحمن الكواكبي و محمد عبده. حيث سار على دربهم و احتذى حذوهم في تبني فكرة الوحدة الإسلامية. لنأخذ بعين الاعتبار قول فالح عبد الجبّار في هذا الشأن:

ولد بعد رحيل المفكر المجدّد جمال الدين الأفغانيّ بعامين أو ثلاثة، و قبل رحيل الكواكبيّ (١٩٠١) و محمّد عبده (١٩٠٤) بوضع سنوات، فهو إذن في توسّط بين هؤلاء. و يرمز هذا التوسّط في الميلاد إلى فترة خصبة، فترة تحديث الدين في أكبر اتّصال و احتكاك بين الغرب و الشرق (عبد الجبّار - انترنيت).

و هؤلاء - كما قلنا - قد دعوا إلى توحيد الدول العربية و الإسلامية تحت راية واحدة و كيان سياسيّ موحد.

٣. الوحدة الإسلامية و الوحدة الشرفية وفق آراء الأسدآبادى و الجواهرى

من الواضح أن تكون للمصلحين المفكرين و جهات نظر متباينة حول الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، و يختلف تعريفها و شروطها عندهم؛ إذ نرى ضمن هؤلاء من يعنى بالعرق و الدم بعض العناية، و هناك أيضاً من لا يعير أهمية لهما و لا يدخلهما فى تعريفه بل يهتم بالتماسك الإسلامى و التشابك الدينى.

و معظم هؤلاء الوجوديين الإسلاميين، لا يقيمون وزناً للدم و العرق، بل يهتمون بالتماسك الإسلامى فى الدرجة الأولى و باللغة فى الدرجة الثانية و يكتبون فى معيارهم بهذا الأخير مؤكداً على التكلم بالعربية و تعلمها مستمسكين بقول النبى (ص): «يا أيها الناس، إن العربية ليست بأب و الد و إنما هى لسان ناطق، فمن تكلم بالعربية فهو عربى»، (المجلسى، ١٩٨٣: ٧/٢٣٩) و يعتبرون الإسلام و الإيمان برسائله السماوية أساس القومية العربية.

و من أبرز هؤلاء الوجوديين الإسلاميين جمال الدين الأسدآبادى و تلميذاه عبد الرحمن الكواكىبى و محمد عبده و كثير من الشعراء العرب المعاصرين منهم حافظ إبراهيم و معروف الرصافى و كذلك محمد مهدي الجواهرى الذى يعتبر جميع الشعوب الإسلامية بجميع عناصرها و أعراقها من العرب و الفرس و الكرد و الترك أمة واحدة.

ليس من الشطط إذا ذكرنا أن هؤلاء الإسلاميين يتزعمهم جمال الدين الأسدآبادى الذى كان يرى أن هوية المسلمين رهينة بدينهم و لا أهمية لديهم للأعراق و لذا يجتمع تحت لواء الرابطة الدينية التركى و العربى و الفارسى و الهندى و المصرى و المغربى (عمارة، ١٩٨٨: ١٣٦).

و قيل: إن جمال الدين كان يعتبر العالم الإسلامى جميعه رقعة واحدة يجب أن تتوحد تحت ظل خليفة ما، سواء أكان هذا الخليفة تركيا أم أفغانياً أم مصرياً، على أن يبلغ من القوة منزلة تجعله السيد المطاع فى أهله (أنطونوس: ١٩٧٤: ١٧١).

لذا كانت دعوة جميع الطوائف الإسلامية إلى الوحدة و نبذ الخلافات من أهم مبادئه التى بذل جهوداً جبارة لتحقيقها. فقد دعا فى جريدته «العروة الوثقى» الشعوب الإسلامية المختلفة إلى الوئام و التآلف و التآخى و ترك التعصبات الطائفية (الأفغانى، ٢٠٠٢: ٧٢).

و لم تكن الوحدة الإسلامية هى المشروع الوحيد للأسدآبادى بل كما ذكر الأستاذ مصطفى فوزى: «لو رجعنا إلى كتابات جمال الدين لوجدنا أن دعوته إلى الجامعة الإسلامية، فى حقيقتها دعوة إلى جامعة شرقية تضم العالم الإسلامى بما فيه من أديان مختلفة و جنسيات متنوعة» (فوزى، ١٩٨٣: ٢٣٨). «وكان يدعو إلى اتحاد شرقى، و هو ما يسمى بالاتحاد الفيدرالى، و هو أن تحكم على شكل دويلات تتمتع بحكم ذاتى، و كلها تتبع حكماً واحداً» (المصدر نفسه: ٢٣٩).

و قد صرّح شخصياً أنّ جريدته لا تخصّ المسلمين فقط بل هي تعتنى بمشكلات الشرقيين أيضاً، فقد جاء في «العروة الوثقى» ما نصّه: «أنشئت العروة الوثقى لهدف إيقاظ الشعوب الشرقيّة عموماً و المسلمين خصوصاً و الدفاع عن حقوقهم» (الأفغانى، ٢٠٠٢: ٧١).

قد عمل الأسدآبادى على إصلاح الدين و إصلاح السياسة، و تأثّر الجواهرى بفكره فى كلا المجالين؛ مجال الإصلاح الدينى و مجال الإصلاح السياسى. و قد تكون الحملة الشعواء التى شنّها الجواهرى فى مقصودته خاصّة على الخرافات و السخافات و بعض التفسيرات الدينية بتأثير من أفكار جمال الدين.

يوجّه جمال الدين دعوته السياسية إلى الشرقيين و يدعو إلى الوحدة الشرقيّة بدلاً من الوحدة الإسلامية، و ذلك ما دفع حنا الفاخورى إلى القول:

من هنا دعوته إلى تضامن طبيعى يتعدى الأمة، هو ذلك التضامن الذى يربط بين جميع شعوب الشرق التى يتهددها التوسّع الأوروبى. و قد أعلنت [جريدة] "العروة" فى عددها الأول أنّها موجهة إلى الشرقيين عموماً و إلى المسلمين خصوصاً (الفاخورى، ١٤٢٢: ٢ / ٨٠).

و يتجلّى تأثّر الجواهرى بفكرة الوحدة الشرقيّة التى قدّمها الأسدآبادى فى كثير من قصائده ولاسيما عندما يتكلّم عن الاستعمار، فدأء الاستعمار تعانى منه جميع شعوب الشرق عرباً و المسلمين و غير المسلمين. و لعلّه حينما يتكلّم عن وحدة الشرقيين من المسيحيين و المسلمين و العرب و الهنود و غيرهم ضدّ الاستعمار فى قصيدة «الثورة العراقية» ١٩٢١ م، يكون قد اقتبس من آراء الأسدآبادى:

وَقَدْ خَبَّرُونِي أَنَّ فِي الشَّرْقِ وَحْدَةً	كُنَّا سُهُ تَدْعُو فَتَبْكِي الْجَوَامِعُ
وَقَدْ خَبَّرُونِي أَنَّ لِلْعَرَبِ نَهْضَةً	بَشَائِرُ قَدْ لَاحَتْ لَهَا وَطَلَاتِعُ
وَقَدْ خَبَّرُونِي أَنَّ مِصْرَ بَعَزْمَهَا	تُنَاضِلُ عَن حَقِّ لَهَا وَتُدَافِعُ
وَقَدْ خَبَّرُونِي أَنَّ فِي الْهِنْدِ جَذْوَةً	تَهَابُ إِذَا لَمْ يَمْنَعِ الشَّرَّ مَانِعُ
هَبُوا أَنَّ هَذَا الشَّرْقَ كَانَ وَدِيعَةً	«فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ»

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ١ / ١٠٢)

كما يعتقد الجواهرى أنّ الأمة الإسلامية بمختلف لغاتها و نجاراتها و شعوبها أمة واحدة و لها قضية واحدة و اللغات التى يتكلّم بها المسلمون و اللهجات العربية المختلفة التى يستخدمها العرب لا بأس بها إذا ما ازدهرت و تكلمت بها الشعوب المسلمة شريطة أن تبقى اللغة العربية الفصحى هى اللغة الأولى و الأهم:

أَلْغَاتِ هَذَا الشَّرْقِ سِيرَى لِلْعُلَى جَنِباً لِحَسْبِ رَافَقَتِكَ الضَّادُ

(المصدر نفسه: ١ / ١٦٦)

إنَّ الجواهرىَّ يعتبر الأُمَّةَ العربيةَ كياناً واحداً تَمَرَّقَ إلى دويلاتٍ وكياناتٍ يوضح «اعتمادى» هذه العقيدة التى يؤمن بها شاعرنا بقوله:

يرى أنَّ وطنه امتداد لوطن أكبر، وأنَّ هموم هذا الوطن هى هموم الأُمَّة لا يمكنها القبول بالتجزئة، فسعادة شعبه، هى سعادة أُمَّته، و محنة شعبه، هى محنة أُمَّته. وإذا كان الاستعمار الإنكليزىَّ قد نهش لسنين طويلة جسد العراق، فسورية و مصر و الجزائر قد ابتليت و جُرِحَت من حرب الاستعمار الفرنسى، و إذا كانت الحكومات الرجعية قد تسلَّطت على رقاب الشعب العراقىَّ قرابة خمسين عاماً فالأمرُ كذلك فى بقية بقاع العالم العربى، إذن فالمصيبة للجواهرىَّ نفسها، و الهمَّ واحدٌ (اعتمادى، ٢٠١٠: ١١٩).

و نحن نظنَّ كلَّ الظنَّ أنَّ الجواهرى فى نزعته القومية يميل إلى الاتجاه القومى الإسلامى متأثراً بأفكار جمال الدين الأسدآبادى كما يبدو فى أشعاره، إذ يعتبر الفرس و العرب و الأتراك و الأكراد كفتى عدل و يعزو تفرقهم فيما بينهم إلى سياسات و مطامع المستعمرين الذين يزرعون فيهم الفتن و الضغائن لكى يضعفهم فينبهوا ثرواتهم. فلنستمع إليه حين يقول:

قَرَى شُعُوبَ المَشْرِقِينَ عَلَى الأَسَى مِيعَادُ فَكِّ أسَارِكِ المِيعَادُ
إِيهِ زَعِيمَ الشَّرْقِ نَجْوَى وَا مَقِ لَهْجِ بِذِكْرِكَ هَزَّةَ الإِنْشَادُ
أَنَا شَاعِرٌ يَبْغَى الوَفَاقَ مَوْحَدٌ بَيْنَ الشُّعُوبِ سَبِيلُهُ الإِرْشَادُ
مَا الفُرسُ وِ الأَعْرَابُ إِلَّا كَفَّتَا عَدْل، وَا لا الأَتْرَاكُ وِ الأَكْرَادُ
لَمْ تَكْفِنَا هَذَى المَطَامِعُ فَرْقَةً حَتَّى تُفَرِّقَ بَيْنَنَا الأَحْقَادُ

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ١ / ١٦٦)

يخاطبُ فى قصيدة «الخطوب الخالقة» جمال عبد الناصر الذى دعا إلى توحيد الصفوف العربية و جمعها تحت راية حكومة وطنية موحدة للعرب بناصر الأُمَّة الكبرى و بحاضنها و فتاها و حامى الفتوة العربية و يناشده إنقاذ فلسطين التى سيؤدّى اغتصابها إلى غضب بقية البلدان العربية، و يشيد بما بذله من جهود لكى تتوحد الأُمَّة العربية:

جَمَعَتَ تَسْعِينَ مِليوناً كَمَا جَمَعَت لُبْدَ اللَّيُوتِ عَلَى أشْبَالِهَا أَجَمَ
و صُعَتَ مَنْ أَنهَرُ شَتَى وِ أَخْلِجَةَ بَحْراً بِمِصْطَلْخِ الأمْوَاجِ يَلْتَطُمُ

جعفر دلشاد وآخرين ٧٣

و صُتَ بالقوَّةِ الحقِّ الذى دلفت تسعونَ عاماً عليه وهو يهتضمُّ

(المصدر نفسه: ٢٥٥ / ٥)

يبدو فى هذه القصيدة أنَّ الجواهرى لا يؤمن بالقومية العربية و بالعروية حسب المعايير العلمانية و العرقية، بل يحثُّ على جمع شمل العروية تحت لواء القومية العربية، وكذا المسلمين من أمم الشَّرق؛ لذا يؤكد على أنَّ الأمة العربية توحدت بفضل اعتصامها بحبل الله المتين و عروته الوثقى. كما يقول:

و دُذ عن الحقِّ إنَّ الحقَّ منطقتُهُ جَمى يفيءُ إليه العربُ و العجمُ

(المصدر نفسه: ٢٥٨ / ٥)

إنَّ الجواهرى يدعو إلى الوحدة الكبرى أى وحدة المسلمين كلَّهم و ليس العرب و وحدهم، و يقول فى هذا الشَّان:

دَعُوا إلى الوحدة الكبرى فقلتُ لهم: نَذرٌ لذلك منى الرُّوحُ و الجسد
خمسِينَ عاماً ظلتُ أناغيها كما نَعَمْتُ أمُّ الوليدِ يناغى عندها الولدُ
و لا مباحاةً، أهلى كلَّهم رَضَعُوا منها اللَّبانَ، و فى أحشائها لُجِدوا
فإن سألْتَ فعن شوقٍ لموعدها كعاطشٍ يبتغى ورداً فلا يجدُ

(المصدر نفسه: ٣٦٦ / ٥)

و هو يتأسَّف على تمزق الأراضى الإسلامية إلى دويلاتٍ متناحرةٍ كثيرةٍ ليس فى كثرتها صلاحها و عزَّها، بل صلاحها و منعتهما فى وحدتها:

مضتْ حِقْبٌ و هنَّ - كما تراها فقاقيعٌ، و نحنُ كما ترانا
تمزقنا دُويلاتٍ تلاقَتُ بها الراياتُ ضَمًّا و احتضاناً
تُرَقِّعُ رايَةً منها بأخرى و تستبقى أصائلها الهجانا
و تكذبُ حين تصطفقُ اعتناقاً و تصدقُ حين تفترقُ اضطغاناً
و تفخرُ أنها ازدادتُ عِداداً و تعلمُ أنها ازدادتُ هواناً

(المصدر نفسه: ١٠٨ / ٧)

٤. الإصلاح الدينى حسب رؤية الأسدآبادى و الجواهرى

بإمكاننا أن نحصر الإصلاحات التى حاول الأسدآبادى تطبيقها ضمن ثلاثة محاور، و هى؛

آفاق الحضارة الإسلامية، السنة الرابعة عشرة، العدد الثانى، الخريف و الشتاء ١٤٣٣ هـ.ق

١. دعوة الطوائف الإسلامية إلى الوحدة و التآخى؛
 ٢. عقلنة الدين و تصفيته من شوائب الخرافة؛
 ٣. دعوة أتباع الأديان الثلاثة إلى التقارب.
- أما دعوته زعماء الطوائف الإسلامية إلى الوحدة و التآلف فقد كان من مقدمات دعوته إلى الوحدة الإسلامية، لذا درسناها فى الموضوع اللآتق به.

و من حيث عقلنة الدين فقد كان - كما أفاد حنا الفاخورى - يدعو إلى تحرير الفكر الدينى من الجمود و إلى إطلاق العقل فى تحرياته و أحكامه. و كذا كان يدعو إلى تصفية الدين مما علق به على مر العصور مما شوه حقيقته، فبالنألى كان يناشد المسلمين النظر فى حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث. كان الأسدآبادى يريد للإسلام مثل الحركة اللوثيرية التى هزت جسم المسيحية قديما و دفعتها إلى التطور الاجتماعى و الفكرى، و كان فى الوقت نفسه يريد الرد على رينان الذى ذهب إلى أن الإسلام و العلم لا يتفقان و أنه بالنألى لا يتفق و المدنية (الفاخورى، ١٤٢٢: ٧٩ / ٢ - ٨١).

و فى مجال مساعيه لترسيخ التقارب و التآلف بين الأديان السماوية فقد قال عنه مصطفى فوزى ما نصه: «يعتبر جمال الدين الأفغانى من أشهر الدعاة إلى توحيد الأديان فى العصر الحاضر، و قد فتح الباب لمن بعده» (فوزى، ١٩٨٣: ٢٤١) و هو يؤكد كذلك على اعتقاد الأسدآبادى بأن الأديان الثلاثة الموسوية و العيسوية و المحمدية على تمام الاتفاق فى المبدأ و الجوهر و الغاية و يستكمل الديانة الواحدة ما نقص فى الأخرى (عمارة، ١٩٨٨: ١٣٠) و قد لا يخلو من الفائدة إذا قلنا إنه كان بالفعل بين تلاميذه و مريديه من يعتنق اليهودية مثل يعقوب صنوع، و من يعتنق النصرانية مثل أديب إسحاق (فوزى، ١٩٨٣: ٢٣٢).

أما آراء شاعرنا الجواهرى حول الدين و ما ينبغى أن يلعب من دور اجتماعى و سياسى فى الحياة الإنسانية فهى تشبه أفكار السيد جمال الدين إلى حد كبير و يبدو أنه اقتبسها من أفكاره. فيقول الجواهرى بأن الديانة الإسلامية الأصيلة توحد بين أتباعها و أنها يعمر بها الوطن، و تهدى معتنقيها إلى الرخاء و الهناء و تمنع الأعداء و تذود الطامعين الذين يطمعون فى ثروات البلاد و استعباد الشعب:

أنت «مدنية الإسلام» لماً
و لا تُترى مواطنها خراباً
و لا تُشع لا انشيقاً و انصِداً
و لا يُبيت أهلها جِباعاً
و لا يُتكون للغربى عوناً
يُهدد فيه للشرق اجتماعاً

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ١ / ٤٥٨)

و من المبادئ الجديرة والصحيحة التي يحلم بها الجواهرى و يدعو إليها هو أن يتحد كل من أتباع جميع الديانات الإسلامية والنصرانية واليهودية وغيرها حتى تنال الأمم الشرقية عزها وكرامتها. و يقول إن تفريقهم و تمزيقهم هو سياسة المستعمرين و الطغاة لتقسيمهم إلى شيع و طوائف لا حول لها و لا قوة فيسهل استعمار جميع أتباعها و تذييلهم:

و لو التقى من بعد طول تفرق
الشيخ، و القسيس، و الخاخام
هى أمة خاف الطغاة شذاتها
فسعوا بها، فإذا بها أقسام
و إذا بها و السدل فوق رؤوسها
فبب له مضروبة و خيام

(المصدر نفسه: ٣/ ٢٨٣)

يرى الشاعر أن معاناة الشعب هى من قبل بعض علماء الدين المزيقين الذين لا يسمحون بالتعايش السلمى بين أبناء الديانات المختلفة و بذلك يتيحون الفرصة للحكام لتطبيق سياسة التفریق و التمزيق:

يعين سياسياً عليها تفرق
و ينصر رجعيًا عليها تعصب

(المصدر نفسه: ٢/ ٢٢٠)

يدعو الجواهرى فى هذه القصيدة التى ألقاها فى حفلة تأبين الشاعر و الفيلسوف الزهاوى الإنسان المسلم إلى التمسك بالعقل و العلم فى سلوكه الدينى و تجنب التقليد الأعمى، و ينكر الشاعر على الذين يقلدون غيرهم تقليداً أعمى قائلاً: إن الدين يجب أن يبنى على أسس علمية و طيبة و أن يكون بمعزل عن الخرافة و العماية التى تسف بالدين و العقائد الإلهية. و يعتبر الحب و الرحمة و العدل و المساواة أساس الدين مؤكداً على وجوب التزام الدين و عنايته بحياة الناس الاجتماعية و هنائهم و سعادتهم. و يقول: إن الذين يحضرون تعليمات الدين على مناسك و أحكام فردية إنما يريدون تسخير الدين لمطامعهم؛ يريدون أن يستعبدوا الناس باسم الدين و يتخذوهم خولاً و يذللوهم، و هم لا يهتمون بحياتهم المزرية و كدحهم و أنصابهم بل يبيعون آيات الله بثمن بخس.

و لشاعرنا قصيدة عنوانها «معروف الرصافى» يدعو فيها إلى التجديد فى تفهم الديانة و أحكامها و نبذ السطحية و القشرية، و يؤكد على أن الديانة لم تنزل حتى تأمر الناس بتسرك ملذات الدنيا و نعيمها لنيل السعادة الأخرية، بل إن الهدف من نزولها هو إعمار الحياتين الدنيا و الأخرى كليهما معاً و تحرير الناس من الذل و الخنوع و إيجاد السعادة الجمعية. و يرى سليمان جبران أن الشاعر:

يمتدح الرّصافى لنورته على قشور الدين، كالجدل الطويل فى المجالس الفقهيّة حول "مدى ما ينزح من البئر تطهيراً له من سقوط عصفور فيه، أو مدى ما يكون من ذلك عند سقوط حيوان مثلاً"، و تبنّيه الإيمان الاجتماعيّ بدلاً من الإيمان التقليديّ (جبران، ٢٠٠٣: ٢٠٢).

و لنستمع إلى قصيدة الجواهرىّ التى تتجلى فيها هذه الفكرة:

لله دُرُكٌ مِنْ جَـرَىء	دونَ فِكْرَتِهِ جَهِيء
أَنكَرْتَ أَنَّ «الِدِّينَ» لَمْ	يَبْرَحَ مَلِيّاً بِالْقُشُورِ
يَجْتَرُّ مِنْ «أَحْكَامٍ» بِئْسَ	رِرْ لُوئْتِ بِدَمِ الْبَعِيْرِ!
قَد كُنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ عُقْبَ	بَى الْمَوْتِ شَيْءٌ فِى الضَّمِيرِ
وَ حَيَاتِكَ الدُّنْيَا لِحَنِّ	تَهَا مِثَالٌ وَ السَّعِيرِ
«اللهُ» عِنْدَكَ كَانَ رَمَـ	زَ سَعَادَةَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ
وَ الْكُفْرُ أَنْ لَا تُغْضِبَ الْأَشْـ	رَارَ فِى شَجَبِ الشُّرُورِ

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ٤ / ٦٤)

إذا يشجب الشّاعر من تعاليم الدين ما يراه محرّفاً لا يفك معتنقيه ممّا تقيدوا به من قيود و سلاسل. و يشجب من علماء الدين من يدعو إلى هذه التعاليم المزيفة، و من يعين السّلطة بدعوة الفقراء و البؤساء إلى النوم و الغفلة و الاحتمال و الترفّع عن حطام الدّنيا و ترك مباهجها و بهارجها و لذائذها للثّام حسب تعبيرهم. لذا يبدو أنّ الجواهرىّ «هو ضدّ طريقة النّاس فى الدين لا ضدّ الدين ذاته» (جبران، ٢٠٠٣: ١٠٨). إنّه ينتقد المدّعين و لا الدين، و يعتزّ بكونه مسلماً، و يعلن عن احترامه لدعاة الحقّ و عن حبّه للمجاهدين و المصلحين من زعماء الدين. حيث يقول للشاعر فى قصيدة «أبو العلاء المعرىّ» التى أنشدّها فى مهرجان ذكره مؤكداً على ما زعمناه:

آمنتُ بالله و النّور الذى رَسَمَتْ	به الشرائعُ غرّاً منهجاً لِحِبا
و صُنْتُ كُلَّ دَعَاةِ الْحَقِّ عَنْ زَيْغِ	و المصلحين الهداة، العُجم و العرّبا
و قد حَمِدْتُ شَفِيحاً لى على رشدى	أماً وجدتُ على الإسلام لى و أبنا

(الجواهرى، ١٩٨٠: ٣ / ٨٩)

٥. مفهوم القضاء و القدر عند الأسدآبادى و الجواهرى

مفهوم القضاء و القدر من المفاهيم المهمّة فى الثقافة الإسلاميّة و قد شغل بال كثيرٍ من المفكرين

المسلمين، فألّفوا فيه مؤلّفات كثيرة مثل كتاب «القضاء والقدر أصل الإنسان و سرّ الوجود» لباسمة كيال و «القضاء والقدر في الاسلام» للدكتور فاروق أحمد الدسوقي و كتب أخرى كثيرة. و من المؤسف أن كثيراً من الطّغاة و المستبدّين قاموا بنشر هذه الفكرة بغية تضعيف همم أبناء الطبقة المسحوقة و إغفالهم و تنويمهم. فقد كان وعظهم يقولون بأيديولوجية الوضع القائم و تبرير وجودها بشتّى الأقاويل و الأباطيل و يقولون بضرورة الانصياع التام للحاكم الغالب ظالماً كان أو عادلاً، فاجراً كان أو برّاً، مسيئاً كان أو محسناً (عبد الحافظ، ١٩٩٧: ١١، ٢٠). و من الشعراء من أكد على هذا المعنى قائلاً:

و طاعة من إليه الأمر فالزم وإن كانوا بغاة فاجرينا

(الوردى، ١٩٩٤: ٩٢)

و نفاقم هذا الأمر في عصر الأسدآبادى و عصر شاعرنا الجواهرى. فتصدّى كلاهما لهذا الانحراف. إذ عرض الأول برسم الإطار الحقيقى لهذا المصطلح و قدّم له تعريفاً يبتعد كل البعد عن الركون و الضعة و الضعف و لا يؤدّى إلى قبول الفقر و الفاقة و الفساد و التأخر بل يبعث الهمّة و القوة فى النفوس. فهذا المفهوم عنده يجب أن يتجرّد من شناعة الجبر و تتبعه - حسب زعمه - صفة الجراءة و الإقدام و يخلق الشجاعة و البسالة فى نفوس المؤمنين به و يبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود و تنشق منها مرائر النّمور. و يؤكّد على أن التوكّل و الركون إنّما طلبه الشرع منّا فى العمل لا فى البطالة و الكسل (الأفغانى، ٢٠٠٢: ١٤٠-١٤٨).

و كذا شاعرنا يهاجم المعتقدات الخرافية التى تحول دون مسيرة الشعب، خاصّة مفهوم القضاء و القدر المقتبس بشكل محرّف و مُغلط من الثقافة الدينية، إذ يتدرّع به المتذرّعون الحاكمون لكى يبرروا أعمالهم و لكى يوطّدوا و يرسّخوا به سلطتهم التى تفقد الشرعية و الشعبية و المصداقية، و يتدرّع به أبناء الطبقة المحكومة و المسحوقة لكى يتخلّوا عن واجباتهم و مسؤولياتهم تجاه المجتمع. و من الواضح أن الالتزام بالقضاء و القدر فى المجال السياسى يسفر عن تبرير الاستبداد و الاضطهاد و التواكل و التخاذل. و يجعل الشعب منفِعلاً يقبل كل ما يحاك ضده.

إنّ مكافحة الأعراف و القيم الموروثة و التقاليد التى تعرقل مسيرة المجتمع و الإنسان نحو التقدّم من أهمّ رسالات الجواهرى التى التزم بمحوها معتبراً هذه التقاليد و السنن و القيم الخلقية المتدهورة أسباب التخلف الاجتماعى و الحضارى. لننظر إلى كلام «اليحى» فى هذا الشأن حيث يقول: «حين أدرك الشاعر أنه يعيش فى مجتمع متخلف، يخضع لمنطق العشيرة و الطائفة و العرقية، تعيّرته نظرتة إلى الحياة، و بدأ يتعامل مع الظواهر من خلال أفكار و مبادئ علمية» (اليحى، ٢٠٠١: ١٧١).

و من الواضح أن الديانة الإسلامية التى تقول بمسؤولية الإنسان، و تؤكد على ما أنزل على الرسول الأعظم من قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١)، و تعتبر «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر» (الكلىنى، ١٣٦٧: ٥ / ٦٠) و فى ذلك مخالفة لهذا المفهوم المخدّر و المحرّف للقدر.

إن الجواهرى أيضاً يؤكد على إيمانه بالمغيبات دون الخرافات و يشدّد على إيمانه بالقضاء و القدر و يعتبر القدر المقدور أقوى من «جبايرة الدنيا و عمالقتها و فراعنتها» (الجواهرى، ١٩٨٨: ١٢ / ٢) أضعافاً مضاعفة. لكن يستنكر الاعتقاد بهذا المفهوم على الصّعيد السياسى، و يعدّها مجرد خدعة و عاظ السلاطين لتنويم الشعب و إغفالهم. و فى رأيه يجب على الشعب أن ينهض و أن يواصل الثورة حتى يحصل على العزّ و الحياة الكريمة لأبناء المجتمع أو يلاقى الموت، فالمجتمع الذى لا يثور ضدّ كيان البغى و الظلم مصيره هو الانهيار و حليفه هو الهوان حسب اعتقاد الشاعر:

لَعْمُرُكَ فِى الشَّعْبِ افْتِقَارٌ لِنَهْضَةٍ	تَهَيِّجُ مِنْهُ كُلُّ أَشْأَمٍ أُرْبِدِ
فَأَمَّا حَيَاةٌ حُرَّةٌ مُسْتَقِيمَةٌ	تَلِيْقُ بِشَعْبِ ذِي كِيَانٍ وَ سُوْدِدِ
وَ إِمَامَاتٌ يَنْتَهَى الْجَهْدُ عِنْدَهُ	فَتُعَدَّرُ، فَاخْتَرِ أَىَّ تَوَيْبِكَ تَرْتَدِي
وَ إِذَا فَلَا يُرْجَى نُهْوُضُ الْأُمَّةِ	تُقُومُ عَلَيَّ هَذَا الْأَسَاسِ الْمُهْدَدِ

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ١٤ / ٢)

يثور الشاعر على سلطة الأفكار الرجعية و المعتقدات الخرافية و التصرفات الهدامة و ينسى على الجراءة فى سلوك طرق التجديد:

لَوْ أَنَّ مَقَالِيدَ الْجَمَاهِيرِ فِى يَدِي	سَلَكْتُ بِأَوْطَانِي سَبِيلَ التَّمَرُّدِ
إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ لَا حَيَاةَ لِلْأُمَّةِ	تُحَاوِلُ أَنْ تَحْيَا بِغَيْرِ التَّجَدُّدِ

(المصدر نفسه: ١٣ / ١)

يقول الجواهرى: إنه لا جريمة أعظم من جريمة الأديب الذى يخدم السلطات الجائرة بقلمه و أدبه، يزين للناس الرضاء بالتقدير و القضاء و يبرر الصمت أمام الطغاة و لا يحتج على سغب المظلومين و حرمانهم. إن المتفلسفين الذين يقولون بالقضاء و القدر و الصبر و الرضاء بما يجرى و يقع إنما يعبدون الطريق للظالمين و الطغاة عالمين أو جاهلين و يخدمونهم و لا يخدمون أبناء الشعب:

و إن صدقتُ فما في النَّاسِ مرتكباً
هذا اليراعُ، شواظُ الحقِّ أرهفهُ
مثل الأديبِ أغانَ الجورِ فارتكبا
سيفاً و خانعُ رأى ردهَ خشباً
و رُبَّ راضٍ من الحرمانِ قسمتهُ
فبررَ الصبرِ و الحرمانِ و السَّعْبَا
و حالَ دونَ سوادِ الشعبِ أن يثبا
و عَوْضَ النَّاسِ عن ذلٍّ و متربتهُ
من القناعةِ كنزاً مانجاً ذهباً
ذوو المواهبِ جيشَ القسوةِ اللجبا
جيشٌ من المُثلِ الدُّنيا يمدُّ به

(المصدر نفسه: ٣ / ٨٩)

تطلبُ السلطةَ من الشعبِ أن يفسرَ شوْمها و البلايا التي تجرُّها إليه بالقضاء و التقدير و أن لا ينخدعَ بكلامِ المصلحين الذين لا يحترمون السلطةَ و ينسبون إليها الضعفَ و السوءَ، و إلَّا فإنَّ عاقبةَ أمره و أمرهم السَّجن و الاعتقال و الموتُ.

و يرى الجواهري أن الله تعالى لا يرحم أمةً تقبل الخنوع و لا تأبى الضيم و الخسف، موحياً إلى ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١). فلا بد للشعب الذي ينوى العزة أن يثور و أن يطالب بحقوقه و بكرامته و أن يحتج على دوسها و أن لا يتكل على القضاء و التقدير، لذا يخاطب الذين يتكلمون على الغيب و يظنون أن يداً في عالم الغيب ستساعدهم و ستنقذهم و يفند رأيتهم بقوله:

يقولون: إنَّ يداً في الغيوب
و لمَّا يَزَلْ مَثَلُ سَائِرُ
تُدِيرُ عَلَى الْأَرْضِ حُكْمَ السَّما
عَلَى النَّاسِ يَجْرِي: بِأَيْدِي سِبا
و تحريقُ «لوطٍ» بذنبِ أُنَى
و أخذُ «ثمودٍ» بسِيقِ رَغَا
فما بال كُفِّ القضا لا تدورُ
على بلدٍ ضَلَّ حَتَّى اختزى؟!
و جَدنا الرَّجَالَ هنا بالرجالِ
لاهين، فسى و صَحَّ مِنْ سَنَا
على حينِ تَخَصَّصُ نِسوانهم
نساءً، و مُتَّصِفُ مَنْ جَزَى

(الجواهري، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ٣ / ٢١٣ - ٢١٤)

٦. قصيدة «جمال الدين الأفغاني»

يقول الجواهري في قصيدته «جمال الدين الأفغاني» التي نظمها بمناسبة الاحتفال بمرور وفاته من العراق في طريقه من مرقد إسطنبول إلى وطنه أفغانستان عام ١٩٤٤ م، يقول: إن أفكار جمال الدين التي قام بنشرها بين أبناء الأمم الشرقية خالدة أبداً تنير الطريق لهم. و يتنى على

جهاده المرير ضد الطغاة الذين يكرهون أن يزال الغطاء عن ضلالتهم و غيهم و تضليلهم و لا ينوون أن يرجعوا إلى الطريق الصحيح و يقدر جهاده ضد المستبدين و بطشهم و غطرستهم. إنه فى هذه القصيدة - حسب تعبير سليمان جبران - «مثال المناضل السياسى الشجاع، صاحب الفكر و العقيدة، الذى يرفض الحياد بين الظالم و المظلوم، فلا يخلق المعاذير محتجاً أن البغى جيش» و أن الزاحفين له فرادى، و أن الأمر مرهون بوقت» (جبران، ٢٠٠٣: ١٤٣).

و يخلتلفُ البناءُ و رُبَّ بانٍ	بَنَى مِنْ فِكْرَةٍ صَرِحاً و شَادَا
و أنتَ ازددتَ مِنْ سَمِّ زَعَافٍ	تَدَوَّقَهُ سِوَاكَ فَمَا اسْتَرَادَا!
نِضَالِ الْمُسْتَبِدِّ، يَرَى اكْتِشَافاً	عَمَائِتَهُ و عَثَرَتَهُ سَادَا
إِذَا اسْتَحَلَى غَوَائِتَهُ و أَصَغَى	إِلَى الْمُتَزَلِّقِينَ لَهُ تَمَادَى
و لَمْ أَرْ فِى الرَّجَالِ كُمُسْتَبِدِّ	مِنْ الْحَقِّ اعْتِزَازاً و اعْتِدَادَا
و كَانَ مُعَسْكَرَانَ: الظُّلْمُ يَطْغَى	و مَظْلُومٌ، فَلَمْ تَقِفِ الْجِيَادَا
و لَمْ تَحْتَجَّ أَنْ الْبَغَى جَيْشٌ	و أَنَّ الزَّاحِفِينَ لَهُ فُرَادَى
و أَنَّ الْأَمْرَ مَرْهُونٌ بِوَقْتٍ	يُنَادَى حِينَ يَأْزِفُ لَا يُنَادَى

(الجواهرى، ١٩٧٢ - ١٩٨٠: ٣ / ٩٨ - ٩٩)

و يشير إلى شرقنة دعوته التى لم يكتفِ فيها بالاهتمام بقضايا العرب و المسلمين، بل غنىَ بغير المسلمين من أمم الشرق، إذ كلَّها تعانى من الاستعمار و الاستبداد و التخلف و الجهل و الخرافات لذا يكرّر كلمة «الشرق» التى هى موضع اهتمام الأسدآبادى و كذلك الجواهرى اللذين حاولا شرقنة دعوتهما و توسيع نطاقها الجغرافى:

جمال الدين كنت و كان شرق	فكم فى الشرق من بلد جريح
و بات الشرق ليلته سليماً	و كانت شرعة تهب الجهادا
على حالين ما اختلفا مفادا	تشكى لا الجروح بل الضمادا!

(المصدر نفسه: ٣ / ٩٩ - ١٠١)

يرى الجواهرى أن الأسدآبادى قد أدّى مسؤوليته تجاه الشرق. و قد كان أداء هذه الرسالة مكلفاً و صعباً، و كان الطريق إلى مقصده هذا و عراً كثير الرعب مليئاً بالأجساد، مغطاةً سهولُهُ و وديانه و أنجاده و وهدانه بالجمام. هذا الطريق هو سفر الهداية الذى كُتبت سطورهُ بدماء الأبطال و الشهداء و الأحرار. و قد ذللت العقيدة و الجراءة هذا الطريق لرائد الأمم الشرقية و سهلت هذه الصعوبات.

إنّ جماجم الشّهداء و الهداة الذين سبقوا الأسدآبادى هى معالم الأسدآبادى و أمثاله فى هذه الطّريق المذبذبة. إنّه هدى الأمم الشّرقية بشجاعة و بجرأة من دون أن يخاف الموت. إنّه هو الملتزم الذى رأى الظلم و العدوان فلم يلزم الصّمت على كظّة الظالم المعتدى و لا على سغب المظلوم المعتدى عليه:

تَجَشَّمَتِ الْمَهَالِكُ فِي عَسُوفٍ تَجَشَّمَهُ سِوَاكَ فَمَا اسْتَقَادَا
طَرِيقِ الْخَالِدِينَ، فَمَنْ تَحَامَى مَصَايِرَهُمْ تَحَامَاهُ وَحَادَا
كَثِيرِ الرَّعْبِ بِالْأَشْلَاءِ، غَطَّتْ مَعَاوِرَهُ الْجَمَاجِمُ وَالْوَهَادَا
جَمَاجِمُ رَائِدِي شَرَفٍ وَحَقٌّ تَهَاوَوْا فِي مَجَاهِلِهِ ارْتِيَادَا!

(المصدر نفسه: ٣ / ٩٧ - ٩٨)

بثنى الجواهرى أيضاً على رفاق درب جمال الدين الأسدآبادى، أمثال عبد الرحمن الكواكبي و محمّد عبده و غيرهما من تلاميذه الذين جعلوا شغلهم الشاغل إرشاد الناس و الكشف عن وجه الحقيقة و المسار الصحيح لهم:

و ناسٌ لا الحضارةُ دَنَسَتْهُمْ لِمُنْقَسِمِينَ حُبًّا وَ اتِّحَادَا
و كانت «عروةٌ وُتْقَى» تُزَجَّى لِضُلَّالٍ بِيَعْبِهِ، رَشَادَا
و جِئَتْ وَ رَفِقَةٌ لَكَ كَالدَّرَارَى وَ لَا طَالُوا مَعَ الطَّمَعِ امْتِدَادَا

(المصدر نفسه: ٣ / ١٠٠)

و فى الختام يتأسّف إذ ليست أوضاع الشّرق فى هذه الأيام كما كانت فى عصر الأسدآبادى إذ تدهورت و تقهقرت أمم الشّرق القهقراء:

مشت خمسونَ بعدك مرخياتٍ أَعْتَبْتَهَا، هِجَانًا لَا جِيَادَا
محمّلةٌ وُسُوقًا من خمورٍ وَ شَامِخَةٌ كُمُحَصَنَةٌ تَهَادَى
تحوّرت السياسة عن مداها إِلَى أَنْأَى مَدَى وَ أَقَلَّ زَادَا

(المصدر نفسه: ٣ / ١٠١ - ١٠٠)

إنّ أمم الشرق الآن لا تعانى من ويلات الاستعمار فحسب بل تعانى أيضاً من أهله الذين يخدمون الاستعمار و يساندونه، فأصبح الشّرق يشكو أهله أكثر ممّا يشكو الاستعمار، يشكو أذنان الاستعمار الذين يقتادون له و ينقادون. فقد أسلم الاستعمار مقدّرات الشّرق إلى هؤلاء

«الخائنين الخادمين الأجانب» الذين سخرهم، فهم طوع أمره و رهن إرادته. إن داء الشَّرْق هو الآن حلفاء الاستعمار من أبناء الشَّرْق أنفسهم:

فكانت حيلةً أن يمتطيه	رضيعُ لَبانه فبغى و زادا
صدى للأجنبى، و ربَّ قفرٍ	أعادَ صدى فُسرَّ بما أعادا
و كان أجَلَ من زمرٍ إذا ما	تجنَّى المستبيحُ، بها تفادى
فكانوا منه كالعوراتِ سِترًا	و كانوا فوق جمرته رمادا
تروى من مطامعه و أبقى	لهم من سوّر ما ورد، الثمادا
و كان إذا تهضّمه غريبٌ	أقامَ له القيامةَ و المعادا
فأسلمه الغريبُ إلى قريبٍ	يسخرُه كما شاء اضطهادا
و كان الأجنبى و قد تولّى	زمام الأمر و اغتصب البلادا

(المصدر نفسه: ٣ / ١٠١)

إنَّ المستعمرين و الحكّام الموالين لهم يشبهون أسراب الجراد، لا يسمحون أن يجنى النَّاس ثمار زروعهم التى لا تشكو محول السَّماء، بل تشكو مزارعهم محول الاستعمار و الاستبداد اللذين لا ينويان أن تُزهر آمال النَّاس:

و كانوا كالزروعِ شكت محولاً فلمّا استمطرت مُطِرت جرادا!

(المصدر نفسه: ٣ / ١٠٢)

إنَّ قصيدة «جمال الدين الأفغانى» ليست مجرد إشادة الشَّاعر و إعجابه بفكر الأسدآبادى و آرائه، بل إنَّها - فضلاً عن هذا - دعوة الشَّاعر للجماهير أن تُلبى نداء الأسدآبادى فى دعوته، و إنَّها أيضاً نفس ما دعا إليه الشَّاعر فى قصائده السِّياسية الوطنية و القومية. و هذا التَّجانس و التَّشابه يدلُّ فيما يدلُّ على مكانة الأسدآبادى لدى الشَّاعر و على أهمّية أفكاره و تطلّعاته و على تأثيره فى فكر الشَّاعر و شعره السِّياسى.

النتيجة

بعد الوقوف على آراء السيّد جمال الدين نجد الحقائق التَّالية:

(أ) أفكار المصلح و الشَّاعر فى المجال القومى متشابهة كلَّ التَّشابه، إذ كلاهما يتحمّس

لتعريف القومية على أساس الديانة الإسلامية، واللغة هي في المحلّ الثاني في اعتباراتهم، ولا محلّ لديهم للأعراق والعنصرية.

(ب) وقد تأثر الشاعر في إلقاء دعوته إلى أبناء البلدان الشّرقيّة في سبيل النهوض بأممهم، وضرورة وقوفهم ضدّ الأدواء المشتركة التي يعانون منها.

(ت) تأثر الشاعر بأفكار جمال الدين في مجال الإصلاح الديني وضرورة فهم الديانة الإسلاميّة فهماً يلائم مقتضيات العصر، فدعا إلى نبذ السّطحية والقشرية، وأكّد على أنّ الديانة لا تأمر بترك ملذّات الدنيا لنيل السّعادة الأخروية، بل إنّ الهدف من نزولها هو إعمار الحياتين الدنيا والأخرى كليهما و تحرير الناس وإيجاد السّعادة الجمعيّة.

(ث) كذا يتجلّى تأثير المصلح الأسدآبادي على شاعرنا بدعوته زعماء جميع الديانات ولا سيّما اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة إلى الوحدة والوفاق والوثام.

(ج) في مجال مفهوم القضاء والقدر يؤكد المصلح الأسدآبادي على تجديد فهمه لكي يحثّ المؤمنين على النّشاط والحركة و يبيّن فيهم الأمل والرّجاء؛ إذ يرى أنّ الفهم الخاطئ لهذا المفهوم قد أدّى إلى تخلف المجتمعات الإسلاميّة، وكذا شاعرنا يعتبر منشأ تخلف المجتمعات الإسلاميّة والعربيّة في نشر المعتقدات الخرافيّة الداعية إلى التّهاون والكسل و يرى من الواجب التصدّي لها والوقوف في وجه الذين يبيّثونها من السلاطين الجائرين و وعآظهم.

المصادر

القرآن الكريم.

الأفغاني، السيد جمال الدين (٢٠٠٢ م). العروة الوثقى، إعداد وتقديم هادي خسروشاهي، القاهرة: مكتبة الشروق الدوليّة.

إعتمادى، يحيى، معروف، يحيى (٢٠١٠ م). «الجواهرى حياتة، مخزونه الثقافي و ميزاته الشعريّة»، مجلّة العلوم الإنسانيّة، جامعة إعداد المدرّسين، طهران، العدد ١٣ (٤).

أنطونيوس، جورج (١٩٧٤ م). بقظة العرب تأريخ الحركة القوميّة، ترجمة ناصرالدين الأسد و إحسان عبّاس، بيروت: دارا العلم للملايين.

جبران، سليمان (٢٠٠٣ م). مجمع الأضداد: دراسة في سيرة الجواهرى و شعره، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات و النشر، مطبعة سيكو للطباعة.

الجواهرى، محمد مهدي (١٩٧٢-١٩٨٠ م). ديوان الجواهرى، جمع و تحقيق إبراهيم السامرائي بالاشتراك مع مهدي المخزومي و علي جواد و رشيد بكتاش، بغداد: دار الرّشيد، مطبعة الأديب البغداديّة.

الجواهرى، محمد مهدي (١٩٨٨ م). تكرياتي، دمشق: دار الرافدين.

عبد الجبّار، فالق: «الفقهاء فى النجف - الجواهرى و التمرد الأول»،

<http://www.jawahiri.com/6x.php?number=8>

- عبد الحافظ، مجدى (١٩٩٧ م). جمال الدين الأفغانى وإشكاليات العصر الحديث، القاهرة: دار المجلس الأعلى للثقافة.
عمارة، محمد (١٩٨٨ م). جمال الدين موقظ الشرق و فيلسوف الإسلام، القاهرة: دار الشروق.
الفاخورى، حنا (١٤٢٢ هـ ق). الجامع فى تأريخ الأدب العربى، قم: ذوى القربى، مطبعة شريعت.
فوزى، مصطفى (١٩٨٣ م). دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام، الرياض: دار طيبة.
الكلينى، محمد بن يعقوب (١٣٦٧ هـ.ش). الفروع من الكافى، تحقيق على أكبر غفارى، طهران: دار الكتب الإسلامية.
المجلسى، محمد باقر (١٩٨٣ م). بحار الأنوار، بيروت: دار إحياء التراث العربى، مطبعة مؤسسة الوفاء.
الوردى، على (١٩٩٤ م). منطق ابن خلدون فى ضوء حضارته و شخصيته، بيروت: دار كوفان للنشر.
اليحى، فرحان (٢٠٠١ م). أزمته المواطنة فى شعر الجواهرى، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.